

الدين من منظور جاك دريدا

د/ لغرس سوهيلة

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية - جامعة معسكر

الملخص:

لقد نال موضوع الدين أهمية كبيرة من طرف الباحثين والمفكرين من مختلف التخصصات الاجتماعية منها، السياسية، الاقتصادية والفلسفية، ومن بين هؤلاء الباحثين نذكر على سبيل المثال ماكس فيبر، إميل دوركايم، كارل ماركس وجاك دريدا... وآخرون. ولكن في هذا المقال سنتناول مفهوم الدين من منظور جاك دريدا، فهو يعتبر أن معرفة الدين يكون في حدود العقل وحده، وعليه نجده يقيم علاقة بين العلم والدين حيث يشير إلى أنهما في تفاعل فيما بينهما، فالتقنية هي شرط إمكان الإيمان بقدر ما هي أيضا فرصته التي لا غنى عنها. وأنه بدلا من أن نضع تعارض أو حاجز بين الدين والعلم، الإيمان والمعرفة فإنه يتوجب علينا التفكير فيهما مجتمعين كما لو كانا يجسدان نفس الإمكانية.

الكلمات المفتاحية:

الدين - الإيمان التفكري - الإيمان الوثوقي - الصوفية - الأخلاق - العلم - المعرفة - التقنية - العلمنة - العقلانية. مقدمة: لقد نال موضوع الدين أهمية كبيرة من طرف باحثين ومفكرين من مختلف التخصصات الاجتماعية منها والسياسية، الاقتصادية، النفسية والفلسفية، ومن بين هؤلاء الباحثين نذكر على سبيل المثال ماكس فيبر، إميل دوركايم، كارل ماركس، ابن خلدون، أوغست كونت، فيورباخ، كلود ليفي ستراوس وجاك دريدا... وآخرون. ولكن في هذا المقال سنتناول مفهوم الدين من منظور جاك دريدا أي التركيز على التحليل الفلسفي للدين ولتحقيق هدفنا المنشود يتطلب الأمر منا تتبع الخطوات التالية:

1-تعريف الدين:

الدين مؤسسة اجتماعية لا تستغني عنها أية جماعة بشرية مهما كانت بدائية، وفكرة الدين مندمجة بالإنسان منذ أن دب على وجه الأرض، و" قد دل التنقيب على أن البشر حتى في أدوار ما قبل التاريخ كان متأثرا بفكرة الدين"⁽¹⁾. وعليه يتضح لنا، أن الدين يعتبر ضرورة إنسانية واجتماعية في الوقت ذاته.

1-1التعريف الفلسفي للدين:

يعرف إيمانويل كانط الدين: " بأنه الشعور بواجباتنا من حيث كونها قائمة على أوامر إلهية سامية"⁽²⁾. إن الدين عند كانط هو مجرد شعور إنساني للقيام بواجباته لأنها مرتبطة بقوة سامية، ومنه فالدين هو علاقة للوعي الذاتي بالله

في حين نجد ماكس مولر يعرفه على أنه: " هو محاولة تصور ما لا يمكن تصوره والتعبير عما لا يمكن التعبير عنه، هو التطلع إلى اللانهائي، هو حب الله"⁽³⁾.

يتحدث ماكس مولر عن الدين الفردي المتمثل في الخبرة الفردية التي يعاني منها في أعماق نفسه وبمعزل عن تجارب الآخرين حيث يسعى للتعبير عما بداخله ومعرفة اللانهائي والحب الشديد لله.

2-2تعريف جاك دريدا للدين:

يعرف جاك دريدا الدين في حدود العقل وحده، وذلك بتمييزه بين الإيمان - الإيمان التفكري والإيمان الوثوقي. ففيما يخص الإيمان التفكري فهو: " لا يخضع لوعي تاريخي، و يتوافق بذلك مع عقلانية العقل العملي الخالص، فإنه يفضل الإرادة الخيرة ويشجعها فيما وراء المعرفة"⁽⁴⁾.

ومما سبق ذكره، يتضح لنا أن الإيمان التفكري مبني على أساس الأخلاق ويتوافق مع العقل وبالتالي يصبح الدين هنا مرادفا للعمل وكذلك مهتما بتهديب سلوك الإنسان وحسن التصرف في حياته بالإضافة إلى دعوته (الإنسان) إلى تكملة نفسه والحرص على رقيها وتمسكها بالأخلاق، وفي الأخير يعمل على تشجيع المعرفة.

أما الإيمان الوثوقي فهو: " يدعي المعرفة وبالتالي يجهل الفرق بين الإيمان والمعرفة"⁽⁵⁾.

"ويقوم هذا الإيمان الوثوقي على ذكر الأفضال والنعم الإلهية التي سيقطفها المؤمن الملتزم بما تنص عليه العقيدة والذي يكيف تصرفه وعمله وفقا لما هو محدد سلفا"⁽⁶⁾.

إذن: الإيمان الوثوقي لا يشجع على العمل والاجتهاد وبالتالي يصبح الدين هنا مرادف للعبادة بمعنى الاهتمام بالفرائض الدينية فقط كالصلاة، التضحية، الصوم، الخ، وفي هذا المعنى نجد جاك دريدا يصنف الدين اليهودي والدين الإسلامي ضمن هذا النوع من الإيمان - الإيمان الوثوقي - باعتبارهما لا يقبلان بالتعدد في إطار الواحد (الإله) ولا يسلمان بموت الإله"⁽⁷⁾، عكس الديانة المسيحية - التي تعكس وتجسد الإيمان التفكري - والتي تسلم بموت الإله (موت الله لا يعني عدم وجوده بل نعني به انسحابه - انسحاب الله - بحيث تقع مسؤولية كل ما يحدث في هذه الحياة على عاتق الإنسان وحده فقط ولا ترجع إلى الله، وفي هذا المعنى يقول دريدا: "متى أراد المسيحي أن يصبغ على أفعاله الصبغة الخلقية، فما عليه إلا أن يدير ظهره للإله"⁽⁸⁾. وعليه فالدين المسيحي - في نظر جاك دريدا - "يبقى الدين الوحيد من بين جميع الأديان" العمومية "الذي يستحق أن ينعت بأنه دين 'أخلاقي'"⁽⁹⁾.

ما يمكن التنويه إليه، أن جاك دريدا ينتمي إلى أسرة يهودية تحترم الطقوس، ومن بينها الختان، وللتوضيح أكثر يمكننا الاستشهاد بحوار أجراه فرانز أوليفيه جيسبير مع جاك دريدا والذي تضمن (الحوار) رأي وفكر وممارسة جاك دريدا للدين ويتلخص فيما يلي:

س- "هل تؤمن بالله، في كل وقت أم في أوقات متقطعة؟

ج- في داخلي يوجد على الأرجح طفل ما زال يؤمن بالله. ولكن ذلك ليس شأن الفيلسوف الكهل.

س- ألم يسبق لك أن صليت؟

ج- بلى. على طريقي. في كل وقت، أو في أغلب الأحيان، على أية حال. لكنني لا أذهب بطبيعة الحال لأصلي في الكنائس ولا في المعابد اليهودية.

س- هل يتعلق الأمر بصلوات أم بأشعار؟

ج- لنقل إن الأمر يتعلق بنوع من اللغة الاصطلاحية الخاصة لا تطابق الطقوس القائمة...

س- وهل هي موجهة إلى من يقيم في الأعلى؟

ج- كلا، بل تبحث عن تتوجه إليه. المسألة ليست مسألة احتشام، لكن يصعب عليا أن أتحدث أكثر من ذلك.

س- هل تحس بأنك يهودي؟

ج- هنا أيضا يصعب علي أن أجيب على هذا السؤال في بضع جمل... إنني في الواقع أحس بأنني يهودي وغير يهودي بالمرة. وحتى إن عرفت بأنني يهودي متشرد، ميال إلى الأسفار - رغم أن هذا الميل عديم الصلة بيهوديتي - فإنني متعلق بجذوري: وهي الجزائر واللغة الفرنسية"⁽¹⁰⁾.

2- منبع الدين:

يحدد دريدا مصدرين للدين وهما:

أ- المهدوية: إذا كانت هذه الكلمة تدل في الإنجيل على الإيمان بمجيء المسيح المخلص البشرية من الشر والأذى، فإن دريدا يستعمل هذا اللفظ للدلالة على تجربة إيمان أو اعتقاد عميقة وجذرية بدون معتقد أو عقيدة وبدون وعد بالخلص أو بالأرض الموعودة. إنه وعد بلا وعد محدد، وانتظار بدون أفق انتظار. إنه نوع من الإيمان بدون دين، ونوع من الاعتقاد لا يستند إلى عقيدة، إنه بهذا المعنى نزوع نحو الآتي والمستقبل ولكنه مستقبل غير قابل للتوقع أو التنبؤ، بل هو مفاجئ ومباغت ومداهم في حدوثه..."⁽¹¹⁾.

ب- الكورا: استعمل دريدا هذا اللفظ للدلالة على المسافة الفاصلة في الداخل، وللإشارة إلى صحراء توجد في قلب الصحراء. هذا المكان الذي يفترض دريدا أنه منبع الدين، ولأي دين، يتسم بالتوتر والتأرجح بين قطبي الوحي والكشف، بين الحدث وافترضية الحدث، بين نظام موحي به ونظام ما هو قابل للكشف. وهذا الطابع التوتري والبيبي لهذا المكان، هو الذي يؤهله لكي يكون منبعاً وفرصة لانبلاج 'إيمان تفكري' آخر وظهور تسامح جديد"⁽¹²⁾.

مما سبق ذكره، يتضح لنا أن التجربة الدينية عند جاك دريدا قوامها الحيرة، التحفظ، الفصل، التفكيك، الجهل، الاحترام، الانعزال، التيه.

ما يثير الانتباه أن الفكر الديني لجاك دريدا متميز ومنفرد بحيث نجده يجمع بين العقل والتصوف، بمعنى الاعتماد على تقابل العقل والتصوف في تعريف الدين، وهذا ما سنوضحه بالتفصيل في العنصر الموالي المعنون ب: "صوفية دريدا".

3-صوفية دريدا:

لقد صرح الفيلسوف الفرنسي فرانسوا فال أن "جاك دريدا فيلسوف ملحد، ثم عاد وقال أن دريدا الجديد أصبح على حافة الديني"⁽¹³⁾، ونحن نعلم أن دريدا له طريقته الخاصة في التدين - كما سبق وأشرنا ذلك في حوار مع فرانز أوليفيه جيسبير، أضف إلى ذلك نجد "تأثر دريدا بالدين الإسلامي من خلال تأثر الفقه اليهودي بالقرآن الكريم"⁽¹⁴⁾.

كما يمكننا إثبات الفكر الصوفي لدريدا من خلال العبارات التي استخدمها وذلك وفقا لما ورد في مقال الدكتور عبد العزيز بن عرفة، ومن بين الأقوال التي قالها دريدا وتضمنت عبارات صوفية والتي نجدها مستنبطة أو بالأحرى شبيهة بصيغ ابن عربي والبسطامي ما يلي:

1-إن حضور الآخر (في شكل شكل لا شكل له .

2-نحن إذا منذرون لممارسة فعل النسيان والغياب.

3-حتى نصبح نعرف النسيان دون اتكاء على المعرفة .

4-لنحرق الكل وننسى الكل.

5-لنحرق ونبدد ونهك الكلمات.

6-لأن ذلك يجعل اقتحام الموت أمرا مريحا.

7-إنه يحرق نصه باستمرار ويمحو آثاره دوما.

8-العطاء ليس له وجهة معينة وليس له صاحب معروف ذو هوية محددة.

9-إنه يغلق عن دائرة الأخذ والعطاء وعن دائرة التبادل وعن دائرة التعويض وعن دائرة المواعيد المضروبة.

10-فبنية الكتابة تتضمن إشارات تهجس بغياب الآخر، أو بهذا الآخر الغائب ولو كان هذا الآخر هو لا أحد"⁽¹⁵⁾.

ففي تعريف دريدا لحضور الآخر في صيغة - شكل شكل لا شكل له - صيغة توضح طبيعة الأداء الصوفي للغة في تعبيرها عن المعاني والموضوعات المستحيلة الاحتواء، ومثل هذه الصيغ الصوفية نجدها في قول البسطامي (كن غيبا في غيبتي)، وفي قول ابن عربي (كل حب لا يتعلق بنفسه وهو المسى حب الحب لا يعول عليه)"⁽¹⁶⁾.

وفي الفقرات الموالية: الثانية، الثالثة، الرابعة والسابعة يتحدث عن النسيان ويصفه على أنه خلاصا وهذه المفاهيم نجد أصولها الصوفية الضاربة في عمق الفكر العرفاني كقول البسطامي:"(فلما أن علم صدق الدعاء من قلبي كان أول ما ورد علي من إجابته أن أنساني نفسي بالكلية).

أما الفقرة الثامنة، التاسعة والعاشره تتحدث عن مفهوم التعلق بالغياب والتهيه والهجرة الصوفية التي لا وجهة لها لا قرار ولا محطة أخيرة ولا غاية، إنما هي غاية نفسها وهي أحد مفاهيم الصوفية يقول ابن عربي (وهذا السفر فيه هو التيه والحيرة...وسفر التيه لا غاية له)"⁽¹⁷⁾.

ومما سبق ذكره، يتضح لنا صوفية فكر دريدا فضلا عن القول بتأثر بعض الصوفيين اليهود بمدرسة ابن عربي الصوفية نذكر على سبيل المثال " الصوفي اليهودي موسى الليوني"⁽¹⁸⁾.

4-علاقة الدين بالعلم:

يؤكد جاك دريدا على أن الدين والعلم مترابطان، بالرغم من أنهما مختلفان ومتناقضان في الوقت ذاته

وتظهر مسألة جمع الضدين بوضوح في كتابه *éperons les styles de Nietzsche* حيث يسلم بوحدة الأضداد وبالتالي لا يمكن تجاوز هذا الجمع، وقد أكد دريدا " أن الذات sujet متناقضة ومتعددة مثل النص"⁽¹⁹⁾.

ففي نظر دريدا أن الدخول إلى الشبكات العالمية (التي تضم أسماء ودولا متعددة) للعلم التقاني عن بعد وللاتصال عن بعد يجعل الدين مواكبا، بل متقدما عن العقل النقدي للعلم تقاني عن بعد الذي يحرسه كظله، إنه حارسه، ظل نوره، وضامن

مصداقيته وجودته، وهو يمثل التجربة الإثتمانية التي يفترضها كل إنتاج لمعرفة موزعة بين الناس، فضلا عن كونه يجسد الإنجازية الليفية الموظفة في كل إنجاز علم تقاني كما في الاقتصاد الرأسمالي المرتبط به. نفس الحركة التي تجعل الدين عنصرا لا ينفصل عن العقل العلم التقاني عن بعد في صورته الأكثر نقدية، ترتد على نفسها بشكل لا مناص له. إنها تفرز تزيافها الخاص، ولكنها أيضا تفرز قوة تحصينها الذاتية⁽²⁰⁾.

فضرورة الحماية الذاتية للسالم والسليم (المقدس) تستلزم على الدوام الجمع بين الدين والعلم.

"فلا إيمان ولا مستقبل بدون ما يفترضه تكرارية ما من أبعاد تقنية وآلية أوتوماتيكية. فالتقنية هي شرط إمكان الإيمان بقدر ما هي أيضا فرصته التي لا غنى عنها. و لا بد لهذه الفرصة أن تتضمن أكبر تهديد وأقوى خطر، ذلك الذي يمثله الشر الجذري"⁽²¹⁾.

وهذه الفرصة ليس أمام الإيمان وإنما أمام البرنامج والبرهان والتنبؤ والمعرفة الخالصة، وعليه يتوجب علينا التفكير في الدين والعلم مجتمعين وليس التفكير في تعارضهما، بمعنى آخر، التفكير في ازدواجية التالية: العلم والدين، الإيمان والآلة، الاعتقاد والمعرفة، الحساب والمقدس (فالحساب مثلا يفيد في إحصاء المؤمنين)- كما لو كنا يجسدان نفس الإمكانية.

إذن: الدين والعلم في ارتباط وثيق وتحالف أكيد - رغم تعارضهما - بحيث لا يمكن نفيه أو تجاهله، نظرا لأهمية وجودهما معا وانتفاعهما من بعضهما البعض.

الخاتمة: ما يمكن أن نختم به هذا المقال هو موقف جاك دريدا من العلمنة من خلال الحوار الذي أجراه مع مصطفى شريف وهذا كله من أجل تأكيد نظرة ورؤية دريدا للظاهرة الدينية، وقد كانت خلاصة هذا الحوار أن " العلمنة أو فصل الدين عن السياسة لا تعني إطلاقا القضاء على الدين أو ازدياءه أو تهميشه وإنما تعني فقط نيل حرية الاعتقاد والضمير، وعدم قمع الوعي الفردي بأي شكل كان. بل ويعتقد دريدا أن التمييز بين السياسة والدين أو عدم الخلط بينهما سيكون لصالح الدين لا ضده، على عكس ما يتوهم معظم الناس في العالم الإسلامي. لأن الدين لن يعود ملوثا بالشؤون الدنيوية والمناورات السياسية المتقلبة بطبيعتها، ولن يعود مستخدما كأداة لتحقيق مصالح هذه الفئة أو تلك، وإنما سيعود إلى جوهره الروحاني المتزه المتعالي"⁽²²⁾.

يتضح لنا مما سبق ذكره، أن جاك دريدا يركز ويشير إلى أهمية الجوانب الروحية والأخلاقية للدين، وهذا ما يؤكد لنا ما مدى تأثره (دريدا) بمبادئ الدين الإسلامي الذي يوازن بين الجانبين - الجانب المادي والجانب الروحاني الذي يحتاجهما الإنسان في هذه الحياة من أجل تحقيق سعادته بنوعها: سعادته في الدنيا وسعادته في الآخرة.

الهوامش:

- 1- طه الهاشمي. تاريخ الأديان وفلسفتها. بيروت. منشورات دار مكتبة الحياة. 1963. ص: 09.
 - 2- أحمد رشوان عبد الحميد. الدين والمجتمع - دراسة علم الاجتماع الديني. القاهرة. جامعة الإسكندرية. 2004. ص: 8-9.
 - 3- وراز محمد عبد الله. الدين - بحوث ممددة لدراسة تاريخ الأديان. الكويت. دار القلم. الطبعة الثانية. 1970. ص: 07.
 - 4- جاك دريدا وجياني قاتيمو. الدين في عالمنا. ترجمة: الهلالي والعمري. المغرب. الدار البيضاء. دار توبقال للنشر. الطبعة الأولى. 2004. ص: 18.
 - 5- جاك دريدا وجياني قاتيمو. الدين في عالمنا. نفس المرجع. ص: 18.
 - 6- محمد أندلسي (2012). جاك دريدا: تاريخ الفلسفة والدين. على الموقع التالي: <http://ar-ar.facebook.com>
- consulte le : 11/02/2014.
- 7- جاك دريدا وجياني قاتيمو. الدين في عالمنا. نفس المرجع. ص: 19.
 - 8- محمد أندلسي (2012). جاك دريدا: تاريخ الفلسفة والدين. نفس المرجع.
 - 9- جاك دريدا وجياني قاتيمو. الدين في عالمنا. نفس المرجع. ص: 17.
 - 10- ميشيل فوكو و جاك دريدا. حوارات ونصوص. ترجمة: محمد ميلاد. سوريا. اللاذقية. دار الحوار للطباعة والنشر والتوزيع. الطبعة الأولى. 2006. ص: 162-163.
 - 11- محمد أندلسي (2012). جاك دريدا: تاريخ الفلسفة والدين. نفس المرجع.
 - 12- محمد أندلسي (2012). جاك دريدا: تاريخ الفلسفة والدين. نفس المرجع.
 - 13- أحمد عبد الحليم عطية. جاك دريدا والتفكيك. لبنان. بيروت. دار الفارابي. الطبعة الأولى. 2010. ص: 322-323.
 - 14- أحمد عبد الحليم عطية. جاك دريدا والتفكيك. نفس المرجع. ص: 324.
 - 15- عادل عبد الله. التفكيكية إرادة الاختلاف وسلطة العقل. سورية. دمشق. دار الحصاد للنشر والتوزيع والطباعة. الطبعة الأولى. 2000. ص:

- 16- عادل عبد الله . التفكيكية إرادة الاختلاف وسلطة العقل . نفس المرجع . ص: 28.
- 17- عادل عبد الله . التفكيكية إرادة الاختلاف وسلطة العقل . نفس المرجع . ص: 29.
- 18- عادل عبد الله . التفكيكية إرادة الاختلاف وسلطة العقل . نفس المرجع . ص: 30.
- 19- بييرف زيماء، التفكيكية - دراسة نقدية . تعريب : أسامة الحاج . لبنان. بيروت. مجد المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع. الطبعة الثانية. 2006. ص: 69-70 .
- 20- جاك دريدا و جيانى قاتيمو. الدين في عالمنا . ترجمة: الهلالي و العمراني. نفس المرجع. ص: 52.
- 21- جاك دريدا و جيانى قاتيمو. الدين في عالمنا . ترجمة: الهلالي و العمراني. نفس المرجع. ص: 56.
- 22- هاشم صالح . كيف نجمع بين عالمين متناقضين. على الموقع التالي:
www.aawsat. Com

consulte le : 11 /02/2014.